- ١٦ -

غزوة حنين

وبدخول مكة تحت سيطرة الإسلام، ازدادت قوة المسلمين زيادة ضخمة، وأصبح واضحا أن انتشار الإسلام بعد ذلك سيكون سهلا هينا، فلم يصادف الإسلام بعد ذلك مجابهة كبيرة. باستثناء غزوة حنين.. وبعد هذه الغزوة ابتدأ العرب يفكرون ويفكرون فى سر هذا الدين.. وفى سر قوته.. وفى سر انتصاراته.. ووجدوا أنه من الصعب أن يقهر هذا الدين بعد ازدياد أنصاره من جهة، وبعد أن أمعنوا التفكير فوجدوه دينا يحض على مكارم الأخلاق، وعلى القيم النبيلة.. وينظم علاقات الناس بعضهم ببعض كأحسن ما يكون التنظيم، بجانب إنه جعل لحياتهم معنى ..فالحياة ليست سوى جسراً للآخرة..

فالحياة ليست هى البداية والنهاية.. وليست هى أن تحيا حياة أيا كانت هذه الحياة ثم تكون النهاية أن يعود التراب إلى التراب ؟.. وأنما هناك الآخرة بما فيها من جنة ونار، بما فيها من نعيم مقيم، أو عذاب أليم..

ومستقبل الإنسان فى أخراه هو ما عملته يداه فى دنياه.. ومن هنا فلا مجال لظلم أو استبداد أو طغيان، أو اعتداء على حقوق الآخرين..

دين يحمل كل هذه المبادئ والقيم ما كان له إلا أن ينتصر مهما كانت أشواك الطريق، ومهما كانت الصعاب..

وبعد أن استقرت الأمور فى مكة لصالح الإسلام، أرسل النبى الكريم السرايا إلى القبائل حول مكة يدعوهم للدخول فى دين الله.. وكان أمر النبى إلى هذه السرايا واضحا.. هو أن تكون الدعوى للإسلام بالحسنى ..دون أن تراق الدماء.. وكان خالد بن الوليد أحد الذين أرسلهم النبى ﷺ بأسفل

تهامة داعيا إلى الدين القيم، وعندما قاوم بنو جذيمة أمرهم خالد أن يضعوا السلاح.. وحاول أحدهم محاربة خالد.. ولكن الناس نزعوا سلاحه، غير أن خالد بن الوليد قتل بعضهم.. وجاءت الأخبار إلى رسول الله، فرفع يديه إلى السماء وقال:

-« اللهم أنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ».

وأمر النبى على بن أبى طالب أن يذهب إلى هذه القبيلة.. ويسترضيهم ويدفع لهم ديات من قتلوا حتى أرضاهم..

.. ومكث النبى خمسة عشر يوما فى مكة يعلم الناس أمور الدين.. ويهديهم إلى الصراط المستقيم.. بعد أن محا كل أثر للشرك فيها.. فلا أصنام هناك تعبد من دون الله.. ولا حجارة صماء بكماء عمياء يتخذها الناس أربابا من دون الله.

وأعطى النبى عثمان بن طلحة سدانة الكعبة لتكون له ولأبنائه من بعده أبد الدهر.. لا يأخذها منهم إلا ظالم.. أما سقاية البيت من زمزم فقد جعلها لعمه العباس..

وما كاد المسلمون ينعمون بالأمن والأمان والفتح العظيم، حتى تناهت إلى أسماعهم أن هوازن التى تقيم فى الجنوب الشرقى من مكة قد استعدت لمهاجمة المسلمين.. فقد هالهم انتصار الإسلام الهائل وفتحه مكة دون أن تراق دماء تذكر.. وخشوا أن تدور الدائرة عليهم، فقرروا أن يستعدوا لمهاجمة النبى وصحبه، وقادم مالك بن عوف وكان شابا فى الثلاثين من عمره.. وانضم تحت لوائه هوازن وثقيف أمرهم مالك أن يعتلوا قمم جبال حنين.. ومن فوق القمم يمكنهم ضرب أى هجوم للمسلمين..

..وعلم النبى بهذا، فأمر المسلمين أن يتوجهوا صوب أعدائهم دون الانتظار حتى يهاجمونهم فى بيت الله الحرام، وخرج الجيش الإسلامى يضم اثنى عشر ألف مقاتل..

عدد هائل لم تشاهده شبه الجزيرة العربية من قبل.. وكان هذا الجيش يضم المؤمنين، ويضم بعض الذين أسلموا من أهل مكة عند الفتح.. ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم..

وخرج المسلمون فى السادس من شوال من العام الثامن للهجرة..

ومضى الجيش يحث خطاه لمجابهة هوازن وثقيف.. بعد أن استعمل رسول الله على مكة عتاب بن أسيد أميرا عليها..

..وسار الجيش الكبير، حتى ظن بعضهم أنه من الصعب هزيمتهم لكثرتهم..

وعند المساء كانت طلائع المسلمين قد وصلت إلى حنين، وكان النبى فى مؤخرة الجيش على بغلته البيضاء.. وكان فى مقدمة الجيش خالد بن الوليد، وعندما عبروا مضيق حنين نحو واد من أودية تهامة.. انهالت عليهم النبال والأحجار.. وكان الهجوم بالغ الضراوة، حتى أن القبائل التى كانت تسير فى المقدمة تحمل أعلامها ما لبثت أن رجعت القهقرى هاربة من هول ضرب الأعداء..

ووسط معمعة القتال.. والجيوش تتقهقر هربا من جحيم الحرب ..فإذا بالمؤلفة قلوبهم يرون أنه من الصعب انتصار المسلمين اليوم.. فأبو سفيان وقد رأى ما حدث من ارتباك فى صفوف المسلمين.. اعتقد أن الهزيمة مؤكدة.. فابتسم بسخرية وكأنه قد وجد ثأره فى هزيمة محمد بن عبد الله وقال:

- لا تنتهى هزيمتهم دون البحر !!

وقال كلدة بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم !!

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام ثبت فى مكانه.. وهو يأمر الناس بالجهاد.. غير أن الفوضى كانت قد دبت فى جيش المسلمين..

ويقول العباس بن عبد المطلب عم الرسول: انى لمع رسول الله ﷺ أخذ بحكمة بغلته البيضاء، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس:

- «أيها الناس..؟ فلم أر الناس يلوون على شئ، فقال: يا عباس، أصرخ، يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب الشجرة.. فأجاب الناس: لبيك لبيك».

وكان نداء العباس على الأنصار.. الذين بايعوه تحت الشجرة على الموت باعثا لهم أن يعودوا إلى النبى ويقاتلوا بجانبه.. فطالما حاربوا مع النبى المعارك كلها، وكان نصر الله حليفهم.. فما لهم اليوم يفرون..

لقد عادوا والتفوا حول النبى، ودخلوا المعركة.. وإذا بهم يثبتون..وإذا بهم يوقفون زحف الأعداء.. ويرى الناس ذلك فيعودون للقتال.. وإذا بالدائرة تدور على أعدائهم.. وإذا بثقيف وهوازن يشعرون بأن الهزيمة واقعة بهم لا محالة، فيفر قائدهم مالك بن عوف مع بعض من أصحابه نحو الطائف والاحتماء بها..

..وهكذا انتصر المسلمون فى حنين.. ورأى الذين مازال فى قلوبهم مرض من أهل قريش، أن ما حدث ما هو إلا معجزة، والانتصار بعد الهزيمة يدل على أن الله سبحانه وتعالى يؤيد محمدا، فأسلم منهم الكثيرون.. وقد صور القرآن الكريم هذه المعركة بأسلوبه المعجز فقال:

﴿ **قَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥].

وكان عدد الأسرى ستة آلاف، واثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة بجانب النساء اللاتى فرّ عنهم أزواجهم هربا بجلودهم إلى الطائف..

وقد أمر النبى ﷺ أن تساق كل هذه الغنائم إلى وادى (الجعرانة).. وأن يحافظ عليها بعض المسلمين، ثم توجه إلى الطائف وحاصرها، وكانت الطائف منيعة الأسوار، وكان من الصعب اختراقها وقد حاصرها الرسول قرابة الشهر.. وعاد فوزع الغنائم على المقاتلين، وأجزل العطاء لأهل قريش حتى يؤلف قلوبهم للإسلام، فقد أعطى من الخمس المخصص له الكثير من الذين دخلوا الإسلام حديثا.. فقد دفع مثلا لأبى سفيان مائة من الأبل، وأربعين أوقية، فطلب أبو سفيان لابنه يزيد ومعاوية كل واحد منهما مائة من الأبل وأربعين أوقية فأعطاه الرسول، حتى قال أبو سفيان:

-« إنك كريم فداك أبى وأمى، ولقد حاربتك فنعم المحارب، كنت ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله ».

وشاهد الأنصار ذلك فتهامس بعضهم:

لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه..

ودخل سعد بن عبادة فقال:

- يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت من الفئ الذى أصبت: قسمت فى قومك.. وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شئ !

قال النبى: فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

- يا رسول الله ما أنا إلا من قومى.

- فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة.

وجاء جمع من الأنصار فخطبهم الرسول قائلا:

-« يا معشر الأنصار، مقالة بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها فى أنفسكم، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قوبكم ؟!..

قالوا: بلى، الله ورسوله آمن وأفضل.

ثم قال: ألا تجيبونى يا معشر الأنصار.

- بماذا نجيبك يا رسول الله ولرسوله المن والفضل.

قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم.. أتيتنا مكذبا فصدقناك، ،مخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار..

هنا طفرت الدموع من العيون وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا، وانصرف الرسول وتفرق الناس..

وبينما النبى ينطلق ليتفقد السبايا، فإذا به يرى أخته فى الرضاعة الشيماء.. تلك التى طالما لعبت معه صغيرا، والذى كان يسابقها فى ديار بنى سعد، ويرضعان من ثدى واحد.. فإذا به يرق لها، ويطلق سراحها.. ويعطيها بعض المال، وتنطلق إلى قومها تبشرهم بأن أخاها العظيم لم ينس طفولته فى ديار بنى سعد.. فإذا بهوازن تعلن إسلامها.

وجاء وفد يمثلهم إلى الرسول فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامتن علينا من الله عليك..

وقال واحد منهم: يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، ولو أن ملحنا (أرضعنا) للحارث بن أبى شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين..

فقال لهم النبى: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا: يا رسول الله خيرتنا من أموالنا وأحسابنا. بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا..

فقال لهم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين.. وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك؟ وأسأل لكم.

وفعلوا ما أمرهم به الرسول فقال النبى : وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ..

وأحرم النبى من (الجعرانة)، ثم ذهب إلى مكة معتمرا، ثم أخذ طريقه إلى المدينة، وكانت هذه العمرة فى ذى القعدة وعاد إلى المدينة فى آخر ذى القعدة أو أوائل ذى الحجة فى قول آخر. واستخدم على المدينة عتاب بن أسيد، وجعل له درهما فى اليوم كما استخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى أمور الدين.. وقد حج الناس فى هذا العام كما كانوا يحجون، وحج بالناس عتاب بن أسيد.

وهكذا غمر نور الإسلام أم القرى وما حولها، وأصبح الإسلام هو القوة العظمى فى شبه الجزيرة العربية.. وبات أن الهيمنة الإسلامية على شبه الجزيرة كلها بات محتما.. فلم تعد هناك قوة فى شبه الجزيرة كلها يمكن أن تقف أمام زحف الإسلام الجارف، فقد تغيرت الصورة كلها.. ولم تعد الأصنام ولا الأزلام تغنى شيئا، لقد سحقت قوة الإسلام ما يعترض طريقها، ولم تنفع هذه الأصنام من يعبدها، واكتسح قوة الإسلام ما يعترض الجاهلية، وبقايا العتمة التى كانت تغشى النفوس والقلوب..

وعندما ينتشر النور يتلاشى الظلام.

* * *